شكسبير العـــاشق

للأستاذ يوسف روشا

كان جون شكسبير ، والد الشاعر ، فلاحا . ويقول بعض الرواة إنه كان جزاراً . وليس ببعيد أن يكون الرجل قد اتخذ هاتين الحرفتين فى آن واحد ، فقد كان جم النشاط سريع الانسجام لا يحجم عن المغامرة فيما يعرض له من الشئون ، فتحسنت حاله بسرعة إذ نراه فى سنة ١٥٥٦ — ولم يمض على وفادته على « ستراتفورد » سوى خمس سنوات — قد ابتاع دارين أنيقتين وانتخب نائباً عن هذه البلدة ، ثم قام بعد هذا بقليل بأكبر صفقة فى حياته وذلك بزواجه من « ماري أردن » ابنة المزارع الغنى ، فاستقامت حاله وارتفع فى مدة وجيزة من مزارع بسيط إلى مصاف أعيان البلدة .

ولد وليم شكسبير فى سنة ١٥٦٤ ولا يزال اليوم الذى ولد فيه موضوع أخذ ورد ، فمنهم من يقول إنه ٢٢ أبريل ، ومنهم من يزعم أنه ٢٣ أبريل ، فليس فى هذا ما يهم ، إنما الذى يعنينا أنه ولد فى ١٥٦٤ وكان الصبي الأول والطفل الثالث لجون وماري شكسبير .

لم يرسل جون ابنه وليم إلى المدرسة إلا عند بلوغه السابعة من عمره . وليس من شك فى أن وليم ، وما عرف عنه من توقد فى الذهن ونفاذ فى البصيرة ، كان قد التهم بسهولة ويسر كل ما تلقاه فى مدرسته ، وليس هذا الذى تلقاه مما يغنى ، ذلك أنه لم يكن يتعدى النحو وشيئاً قليلا جداً من اليونانية واللاتينية اللتين لم يتقدم فيهما تقدماً ملموساً ، حتى أن « بن جونسن » ، وقد كان معاصراً للشاعر ، قال عنه مرة إن معرفة شكسبير باللاتينية قليلة وأقل منها معرفته باليونانية .

على أن حال الأب المالية أخذت فى التدهور حتى اضطر آخر الأمر إلى إخراج كافة أبنائه من المدرسة .

لا نعرف شيئاً عما كان يفعله الشاعر من الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة من عمره ، وأغلب الظن أنه كان يساعد أباه فى مهنته كجزار ، إلا أن سوء الحظ لازم جون شكسبير ، فأخذ ينحدر رويداً رويداً إلى هاوية الإفلاس والفقر المدقع ، فساءت أخلاق وليم وانضم إلى جماعة من الأشرار يسرقون الغزلان من حدائق الأغنياء !

ولكن اقتحام الحدائق واختطاف الغزلان لا يعدان شيئاً بجانب ما كان يقوم به وليم شكسبير من غزواته الغرامية ؛ فقد وجه سهامه ، وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره إلى فؤاد « آن هاتوى » ابنة فلاح ، فصادها !

كان وليم مشبوب العاطفة ، زير نساء ، كما تدل عليه أشعاره وخاصة قصيدته « فينوس وأدونيس » . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد من مغازلة « آن » سوى العبث وإشباع الشهوة ، ذلك أنه لم يكن يحبها ، كما تبين فيما بعد ، ولكن المسألة تطورت وأرغم آخر الأمر على أن يتزوجها .

كانت « آن » تكبره بثماني سنوات ، وبعد ستة أشهر من زواجها وضعت له صبية أسماها « سوزان » ولا ريب أن هذا هو السبب الذى من أجله أرغم وليم على الزواج .

على أن هذا الزواج كان نكبة على الشاعر ونعمة على الأدب الانكليزى خاصة والأدب العالمى عامة .

ذلك أنه لو لم يتزوج « آن » هذه لما نزح إلى لندن ولما عرف تلك الفتاة ذات الشعر الناعم والحاجبين الأسودين التى جرعته الصاب والعلقم ، والتى من أجلها أخذ يخرج تلك الروائع الخالدات ، ينفث فيها سمه ، وينفس بها عن كربه .

لقد كان وليم ، كما أسلفنا ، زير نساء ، لا يكف عن رمى شباكه هنا وهناك لاصطياد الكواعب ، وكانت « آن » زوجته شديدة الغيرة ، شكسة الطبع ، فكان الخلاف بينهما يتسع والحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

إن غلمته العارمة ورعونته الهوجاء هما اللتان ورطتاه وقيدتاه بهذه الأنشوطة فلا مناص له الآن إلا أن يقطع الحبل . لقد كان عليه أن يختار أحد أمرين ، إما أن يكون مخلصاً لطبيعته وفنه ، وإما أن يذعن لعرف المجتمع وواجبه ؛ فاختار الأول وفر إلى لندن ، ولقد عاد هذا الاختيار على العالم بأكبر فائدة .

ولقد حاول الشاعر أن يعتذر عن هذه الزلة بهذا البيت :

« الحب طفل غرير ليس يدرى ما الضمير »

لا نريد أن نقف طويلا لنتبع خطوات شكسبير فى لندن مخافة أن يطول بنا الكلام فيلهينا عما نحن بصدده . يقول الرواة إن أول عمل قام به الشاعر عند هبوطه على لندن هو إمساك الجياد عند أبواب المسرح مقابل جُعل ؛ ثم تدرج قليلا قليلا إلى أن أصبح ممثلا ومؤلفاً للمسرح .

يذهب « فرانك هارس » ، الناقد الانكليزى الشهير إلى أن حياة شكسبير فى لندن حتى سنة ١٥٩٧ — السنة التى تعرف فيها إلى « مارى فتون » — كانت سعيدة إلى حد ما على الرغم من هذه السحابة القاتمة المتغلغلة فى نفسه . لقد كان ، وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره أعظم شاعر ومؤلف للمسرح أنجبه التاريخ ، وكانت أواصر الصداقة تربطه مع « الايرل أوف ساوثمتن » واللورد هربرت « بمبروك » ، وهما شابان ارستقراطيان عريقان فى المجد ، وهذان قرباه إلى القصر .

ومن طريف ما يذكر أن الملكة « اليزابيث » شاهدت مرة رواية « الملك هنرى الرابع » فأعجبت « بفلستاف » ، تلك الشخصية الجذابة المرحة ، فأوعزت إلى شكسبير رغبتها فى أن ترى « فولستاف » عاشقاً قد تيمه الحب . فنزولا على رغبتها أخرج شكسبير فى مدة لاتتجاوز الأسبوع مسرحيته « زوجات وندسور المرحات » فكان نصيبها الفشل ، ذلك لأن الفن العالى لا يخضع للمؤثرات الخارجية ولا يصدر إلا من منبع واحد هو وحى الفنان !

والآن مَن هذه السيدة « مارى فتون » التى سيطرت على فؤاد الشاعر وأضرمت فيه نار الحب ؟ إنها وصيفة الملكة « اليزابيث » ، فى التاسعة عشرة من عمرها ومن عائلة عريقة فى المجد . لقد وصفها شكسبير بأنها امرأة لا كالنساء ، فارعة القوام ، شاحبة اللون ، عيناها وحاجباها سوداوان ، عجرية الطبع ، متغطرسة ، متمردة ، خليعة ، من أرومة عريقة فى المجد وصاحبة مركز رفيع .

هذه هى المرأة التى جن بها الشاعر ، فما هى صفات شكسبير ومؤهلاته حينذاك ؟

لقد كان فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ضعيف البنية ، محطم الأعصاب ، خجولا ، فقيراً ، شاعراً . ولكن أغلبية الشعب فى ذلك العصر ، عصر البطولة الجسمية ، لم تكن تحفل بالشعر والشعراء ، وكانت تفضل مصارعة الديكة على أية تحفة فى الفن والأدب .

لذلك لم يجد شكسبير من نفسه الشجاعة لبث هواه اللاعج لحبيبته بنفسه ، فرجا صديقه « اللورد هربرت » أن يقوم عنه بهذه المهمة فقبل ، ولكن « مارى فتون » تشبثت باللورد الشاب الوسيم وبادلها هو أيضاً الحب وخلفا الشاعر يندب الصداقة والوفاء .

على أن شكسبير لم تخمد جذوته بل زاد وجده ضراما على مر الأيام ، فما انفك يصب جام غضبه على العاشقين فى مسرحياته وقصائده ، يصرح حيناً ويلمح أحياناً . ففى مسرحيته « جعجعة ولا طحن » يذكر الحادثة بصورة جلية على لسان « كلوديو » ناصحاً للعشاق ومحذراً لهم من الوقوع فيما وقع هو فيه إذ يقول : « حقاً إن الأمير يبثها غرامه ويستهويها لنفسه . إن دعائم الصداقة تكون ثابتة متينة فى كل شىء ما عدا أمور الحب ؛ فنصيحتى للمحبين ألا يتخذوا وسيطاً بينهم وبين من يحبون ، بل ليبثوا غرامهم بأنفسهم ، ذلك لأن الجمال نوع من السحر لا تلبث الأمانة أن تذوب أمامه وتتلاشى » .

ولقد تشتد بالشاعر الأزمة ويضيق « بمارى » ذرعه فيرعد ويزبد مهدداً إياها بأنه سيهجوها أقذع الهجاء وأقساه ؛ ولكن فاته أن امرأة « كمارى فتون » ، التى كانت تلد نغلا بعد نغل دون ما حياء أو خجل ، لا يهمها ما يكتب عنها بعد ما ذاع أمرها بين الملأ ، وأغلب الظن أنها كانت تقابل التهديد بشىء غير قليل من السخرية والاستخفاف .

إذا أردت أن تعرف رأى شكسبير فى « مارى فتون » هذه فما عليك إلا أن تقرأ مسرحيته « أنطونيو وكليوباترة » فما « أنطونيو » سوى « شكسبير » وما « كليوباتره » سوى « مارى فتون » وإليك البيان .

« أنطونيو » : إن مكرها لا يكاد يتصوره عقل إنسان !

« أنوبربس » : مهلا سيدى لا تقل هذا . إن عواطفها لمن أنبل العواطف وإن جبها لصاف نقى لا تشوبه أية شائبة